

حربان فاصلان في تاريخ إفريقيا حرب إيسلي وحرب تطوان

عبدالعزیز بنعبدالله

عضو أكاديمية المملكة المغربية

بعد صراع عارم بين الأمير عبد القادر الجزائري والجيش الفرنسي تمكن الوالي العام للجزائر " بوجو " Bugeaud (عام 1275 هـ / 1859 م) من السطو على مجموع الإيالة الجزائرية فانحاش الأمير الجزائري لاجئا إلى التراب المغربي بوجدة والريف و بعد أقل من سنة (1859-1860) انبرت إسبانيا في تواطؤ صارخ مع فرنسا لإثارة حرب تطوان التي أطلقت عليها حكومة مدريد اسم (حرب إفريقيا) فكان الحربان انتفاضة صليبية اعتبرت فرنسا أنها بداية ("العصور الحديثة" Les Temps Modernes) بالقارة السمراء.

بدأت المعركة بين المغرب و فرنسا بمحاولة "بوجو" العبث في الحدود مطالبا من المملكة طرد الأمير الجزائري فرفض السلطان ذلك وانبرت كتيبة بإمرة ابن عم السلطان المولى المامون فأجلت الفرنسيين الذين ارتدوا نحو (مغنية) حيث استنفر السلطان المولى عبد الرحمن جيشا بقيادة ولده الأمير محمد فتقدم "بوجو" واصطدم به قرب (وادي إيسلي) صباح (منتصف شعبان عام 1260 هـ - 13 غشت 1844) فالتحم الفريقان وكان الأمير القائد قد غير سحنته في المعركة فحسب الجند أنه هلك فهاج الناس وماجوا فاستشعر الأمير بالهول بعد أن تشتت الجيش بسبب سوء القيادة و رداءة التنظيم و قلة الضباط و الجنود المحترفين و أنانية الانتهازيين فترجع إلى تازة عامدا جمع شتاته و لكنه اضطر إلى إمضاء (معاهدة طنجة) في نفس السنة نفذت بمقتضى (معاهدة لالة مغنية) فالترم السلطان بإجلاء الأمير عبدالقادر ومرت ثلاث عشرة سنة في دعم الثغور وتجديد العدة والعتاد فتوفي السلطان المولى عبدالرحمن بمكناسة في (29 محرم 1276 هـ) بعد أن عمل بعزم و حكمة لإنقاذ الوطن المههدد من كوارث خطيرة .

وكانت أولى نتائج هذه الانهزامية ظهور أول بادرة لتحرير التجارة الخارجية المغربية سبقت بادرة العولمة في عصرنا فشعرت الأمة بالخطر الذي أصبح يهدد الكيان الاقتصادي القومي بسبب انعدام أية مراقبة و لا حماية للمقومات الوطنية. وكان الأسبان قد بدأوا يبذرون نواة لتوسيع شبكة نفوذهم في الشمال فاحتلوا (الجزر الجعفرية) و أقاموا الأبنية في الحدود بين سبتة و الأنجرة بدل الأكواخ الخشبية فهدمها الجمهور الذي واصل غاراته على (سبتة) فما كان من المولى محمد الرابع إلا إشهار الحرب على أسبانيا رافضا التنازل للأسبان فاستنفر السلطان الثغور للجهاد و أرسل طلائع كتائبه إلى أرباض تطوان قبالة سبتة و انضاف إليهم من أهل (الأنجرة) و القبائل المجاورة و أطراف البلاد . نحو خمسة آلاف واجهت خمسين ألف جندي أسباني تحت قيادة الجنرال أودنيل و بريم و استمر العراك نصف شهر عزز بعدها السلطان هذه القوة بأخيه المولى العباس فصمدت الكتائب المغربية في وجه جيش أسباني عارم قد عزز بأسطول زحف عن طريق الساحل إلى (الفنيدق) فتقهقر المولى العباس في غير ترتيب و لا انضباط إلى (مجاز الحجر) بدون نظام و لا دراية عسكرية و قد أمده السلطان بعتاد قوي و لكن الإمدادات الأسبانية كانت تترى على الأسبان من (سبتة) برا و من الأسطول بحرا فسحت مجال احتلال (برج مرتيل) ثم الإغارة على تطوان بفرقتين مسلحتين بمدافع و صمد التطوانيون أمام هذه الهجمة و عززهم السلطان بكتائب جديدة بإمرة أخيه المولى أحمد و لكن الجيش الأسباني أحرق بها فانجلى العباس عن مؤخرة المدينة

فاستأذنه الناس بالتحصن بالجبل و لكن الانتهازيين و المتنصرة المحميين واصلوا الاضطراب فاضطر أهل تطوان أمام هذا الخلل الصارخ إلى فتح أبواب المدينة في وجه الجنرال الأسباني الذي دخلها (يوم الاثنين 13 رجب 1276 هـ) (5 يراير 1860) حيث عاث فسادا و أحال المساجد إلى كنائس و رفض السلطان الشروط الأسبانية لإقرار الصلح معززا بمآت المتطوعين الذين هبوا من (بوصفيحة و عرب الحياينة) لإيقاف زحف الأسبان و الإمعان في تقتيلهم و لكن الخصم ظل يواصل سيره أمام هذه الانتفاضة غير المنظمة مما أدى إلى إبرام معاهدة في (أواخر شعبان عام 1276 هـ) مع فرض شروط منها دفع المغرب عشرين مليون ريال ظل الأسبان محتلين لتطوان مدة سنة أدى السلطان خلالها نصف الغرامة و أقيم مندوبون أسبان في المراسي لاقتضاء الباقي من موارد الديوانة فتم الجلاء عن تطوان في (ثاني ذي القعدة سنة 1278 هـ/مايه 1862) بعد احتلال استمر أزيد من ستة و عشرين شهرا.

ذلك ما حكاه الجانبان مع تناقض في الرواية فما هي الحقيقية ؟ و ما هو سبب انهيار الجيش المغربي و كيف تم و استمر تواطؤ الأسبان و الفرنسيين مما أدى إلى ما نزال نعاني منه إلى اليوم ؟
الواقع أن الحربين كانتا كسابقتهما " معركة وادي المخازن " هجمة صليبية غير مسبوقه في مداها و عواقبها بشهادة المؤرخين من الجانبين و خاصة الأسبان مما حفلت به أناشيد جنودهم و إطلاق أسماء الأساقفة على مراكز بدءا بشوارع تطوان كما صدرت بادرة إشهار الحرب ضد المغرب من البرلمان الأسباني نفسه الذي ابتهل وفاة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام في (خريف 1859) فأجمع أعضاؤه على إعلان الحرب بعد أن استثاروا قبائل مغربية كقبيلة (الأنجرة) التي برهنت عن روحها الوطنية في دفاعها عن سبتة و حوزها و قد جند الأسبان عشرات المراسلين الصحفيين ذوي الاختصاص و الصيت برز منهم اثنان و هما (Pedro Antonio Alarcon (1891-1833 و

و (Benito Perez Galdos (1920-1843)

فالأول هو صاحب (مذكرات شاهد على حرب إفريقيا) و الثاني أديب مرموق أصدر بإسم (أحداث وطنية) سلسلة من القصص و الروايات منها (عيطات تطوان) التي تؤرخ لحرب تطوان و لم يفت هذا الأخير الإشادة بشاهد عياني تطواني هو الشاعر الكبير المفضل أفيلال الذي نحتفظ بالنص الكامل لتقريره في هذا المجال و إن كان ينحي باللائمة في معظم حديثه على الانتهازيين من بعض رجال المنطقة من المحميين الذين يلقب بعضهم بالمتنصرة بينما يشيد بتطوان المسالمة التي لا تنتفض إلا للدفاع عن كرامتها و استقلالها ملقبا إياها بالحمامة قائلا :

تطوان ما كنت إلا بين البلاد حمامة
أو كعروس تجلي من بعد لبس العمامة
فقت جمالا و حسنا فاسا و مصر و شامه

ولكن (المفضل المفضل) بقدر ما كان رقيقا في حبه لتطوان و مواطنيه من أهلها بقدر ما كان عنيفا شديد الوطأة على من تهاون أو خان في ذبه عن الوطن المههد.
فما ذا قال؟

في ثاني ربيع الاول 1276 هـ بعث نائب السلطان محمد الخطيب بطنجة كتابا قرئ في المشور على أعيان أهل تطوان للإنذار بعزم الأسبان وحثهم على أخذ العدة من البارود و لكن نصف أهل المدينة ظل بدون عدة ففر البعض إلى الناحية منهم المفضل أفيلال الذي خرج مع أهله إلى (بني صالح) قرب تطوان ليعود بعد ذلك و في تلك الليلة خرج أهل تطوان للقاء العدو حاملين مدفعين اثنين من (قصبه مرتيل) مستغيثين بأهل الجبل فلم يقدم عليهم احد و لكن الأمر اشتد دون استجابة الجبل الذي كانت تطوان قد

منعتهم من الزرع في ذلك العام وهو عام القحط رغم امتلاء الدور بالزرع و توفرها منه على مقدار سبعة
مراكب فصدر الأمر من السلطان لاستنفارهم فقدموا إليها و في (خامس عشر ربيع الثاني) اجتمع الأعيان
و العلماء و قد داخلهم الرعب فاتفقوا على مواصلة الحرب و عدم المصالحة إلا بعد الهزيمة " و إلا دخلو
تحت حكم النصارى " - كما يقول أفيلال الذي تنقل مع أهله إلى شفشاون في اليوم التالي ليرجع إلى
تطوان بقصد الجهاد و تحريض المومنين على القتال و تدخل آنذاك سيدي عبدالسلام بن ريسون فأمر
بإخراج النساء و الضعفاء من البلد إلى جبل بني حزم و مواصلة القتال من أسوار المدينة و من داخلها و
هنا لاحظ السيد أفيلال أن من كان غرضه الدخول تحت حكم النصارى من المحميين و المنتصرة رفضوا
السكنى بالجبل منددين بمن خرج من المدينة بتخريب داره و نهب متاعه و جعلوا الحراس على أبواب
المدينة لمنع الناس من الخروج و كان الخليفة العباس أخو السلطان قد قدم بصدد الجهاد و في (21 ربيع
الثاني) توافد الأسباب من (سبتة) و نزلوا في (دار البيضة) و هي دار بناها (أحمد الريفي) لما كان
مرابطا على سبتة و ظل أهل تطوان في انتظار ورود الإغاثة من السلطان في حين ظل الأسباب يغيرون
على العزائب إلى أن وصلوا (يوم الثالث والعشرين) منه إلى (الفنيدق) حيث خرج أهل تطوان بحذافيرهم
إلى (دقم الفنيدق) و من بينهم أهل (وادراس) و (بنو يدر) و (بنو حزم) نزلوا وسط أنجرة بمدشر يدعى
(البيوت) على بعد عشرة أميال من (دار البيضة) و انضم إليهم رماة من أنجرة و في حين كان الأسباب
يوصلون بناء الأبراج و حفر "الأشبار" و قطع الأشجار ظل المجاهدون من القبائل بين كر و فر إلى يوم
(28 ربيع الثاني) حيث شب قتال عنيف بين الفريقين فانهزموا بعد أن ورد على مرسى تطوان "بابور"
(باخرة) تعزز بثلاث فراكط كبار قدفت البرج بأربعة آلاف من القنابل المشحونة بالبارود المسحوق
و الزئبق و هدمت (برج مرتيل) و اهترت جدران المدينة من صوت المدافع التي كانت تسقط على أهلها
من طول البحر فعاد المجاهدون إلى القتال (يوم رابع جمادى الأولى 1276 هـ) منتقلين من (البيوت) مع
من انضم إليهم من أهل (وزان) و (مسارة) و (رهونة) و (بني مصور) و (جبل الحبيب) إلى دار البيضة
بمكان يعرف ب (عين رحمة) فانهزموا و مات منهم اثنان و عشرون و جرح نيف و خمسون و بعد
استيناف الصراع يوم ثالث عشر جمادى الأولى) اشتد الحرب فاستشهد سبعة و أربعون من المسلمين و
جرح اثنان و سبعون و مات من الأسباب عدد كثير نظرا لكثرة رماة الجبل من المغاربة الذين كانوا
يستترون بالأحجار و الأحجار و الأسباب يواجهونهم في صفوف كالبنيان المرصوص يرمون بالمدافع إلى
أن وصلوا إلى (الفنيدق) و كان بالبحر مركب للإتجيز ينتظر لمن ستكون الغلبة لينالوا حظهم من الغنيمة
و ظلت أعداد المجاهدين المغاربة في تزايد فانضم إليهم (ابن عودة) قائد عرب الغرب ثم شبت (وقعة
قرب دار البيضة) ظهرت المزية فيها لأهل زرهون و (في يوم 23 منه) دخل تطوان الخليفة العباس و
أمر المحلة (الكتيبة) التي كانت مرابطة في ثغر تطوان بالتوجه لسبتة و صاحبهم رماة من تطوان مؤكدا
شيخ سيدي عبد السلام بن ريسون مرافقته و قد انزعج العباس مما بلغه عن المحلة المرابطة في (البيوت)
فازداد الرعب عند وصول عشرة مراكب لمرسى تطوان و أبى أهل أنجرة إلا مواصلة القتال حيث شبت
يوم (سادس جمادى الثانية) وقعة كبرى بالفنيدق انتصر فيها المغاربة بفضل أهل أنجرة الذين طلبوا من
الخليفة العباس - وكان نازلا بموضع يدعى (المنزلة) قرب الفنيدق - أن يبعث معهم رماة الجبل لأخذ (دار
البيضة) فبعث معهم الرماة و ترك معه الجيش وكانت مكيدة منهم - كما يلاحظ السيد أفيلال - ربما تأرا
من أهل تطوان لما كان بينهم من مجاذبات و لم يبق لدى الخليفة من عدة للدفاع فنزل محلة في (نكرو) و
طلب من أهل تطوان إمداده بالبارود فأبوا و لعلمهم لم يكونوا مؤيدين لهذا النوع من التكتيك مما أدى إلى
معارضة الشيخ ابن ريسون له حيث كان الخليفة يعمل على الانتقال من مكان إلى مكان فيعمر الأسباب

المكان المفرغ و انتهى الرحيل بالعباس إلى وسط الجبال حيث ينعدم الماء. و كان المتقاعسون عن الجهاد فرارا من الموت (وبهم ابن عودة و باقي القواد) يكتفون بالقول بأن " دين النبي غالب" فانتقل أفيلال عائدا إلى تطوان و الأسبان يواصلون سيرهم حتى وصلوا إلى (واد أسمير) و هنا هاج البحر و غرق مركب للعدو و هرب الجميع و بقي أحد العسكر متقطعا بين واديين فأشاع أن مددهم انقطع فحمل المسلمون السلاح من جديد وكان أفيلال معهم فلما بلغوا المكان المدعو (الطويل) تحقق كذب الإشاعة فاختل نظام الجيش المغربي و في (تاسع عشر جمادى الثانية و عشرين منه) توجه الأسبان إلى تطوان فاعترضهم المسلمون في (دقم الفنيديق) و حاصروهم فلم يثبتوا أمام الأسبان فانهزموا و نزل الأسبان موضعا ترى منه المدينة قبالة جامع (تاسيس) فنزلوا من مرسى المضيق و برج (رأس الطرف) و في الغد بعث الخليفة العباس لأهل تطوان يقول : " انظروا إلى موضع للنزول بحيث لا تلحقني "كورات" العدو " فتجراً أحد المواطنين على اقتراح النزول في (برج القلالين) إذا كان العباس يود مقابلة العدو و إن كان إنما يود أن لا تلحقه كورة فلينزل في (واد أبي صفيحة) يجعل بينه و بين العدو المدينة و لكنه ضرب أخبيته في برج (القلالين) و انتشرت محلته في البساتين و خرج أهل تطوان للجهاد من (باب المقابر) فلما شاهدوا أعداد النصارى أخذهم الرعب فعادوا من (باب العقلة) من غير قتال و في هذا اليوم أمر عامل المدينة بإخلاء (برج مرتيل) و ترحيل ما فيه من العدة و العتاد و المونة و خرج من كان فيه من الطبخية و الرماة فاحتل الأسبان البرج و نصبوا فيه رايتهم و في (واحد منه) دخلت للمرسى نحو الأربعين مركبا فلم يكن للعباس إلا الثأر من الضعفاء الذين أخرجوا أهلهم من تطوان فسجنهم و عزل (القاضي عزيمان) لإفئائه بإخراج أولاهم من المدينة و تكرست الهزيمة ففر الكثير أمام الأسبان فكان أول الفارين في جبل درسة و آخرهم في القلالين و في هذا اليوم خرج الشيخ ابن ريسون بأهله و خدامه إلى (تازروت) و ذهب هو لعرضته في (كيتان) و في (خامس رجب) قدمت من فاس محلة من الخيل و الرماة بقيادة مولاي أحمد بن المولى عبد الرحمان فالنتقى الفريقان (بواد الشجرة) خارج البساتين فأظهر الأسبان الهزيمة فتبعهم المسلمون فلم يشعروا حتى طلع عليهم عسكر كبير من جهة (مدشر الملالين) فعاد العدو إلى (مرتيل) و لو أراد العدو الدخول إلى تطوان لوجدها فارغة و جاء المجاهدون يطلبون المدد من مولاي أحمد فلم يلتفت إليهم و أقبل على المسمى (الرزيني) يقول له "هل لك جارية طبخة؟" و كان الأسبان صامدين يطالبون بالصلح بشروطهم القاسية و بدأوا بهدم أجزاء المدينة و اقتحامها و كان العباس بتطوان يظن أن الأمر مجرد تهديد فوجه إلى السلطان يقنعه بذلك و كان الخليفة يقول بأن السلطان بعثه للقتال لا للصلح و لكنه استسلم مع ذلك للمصالحة المريرة و خرج من المدينة تاركا إياها نهبا للجيش و كان "المتنصرة" (كما يسميهم أفيلال) يساعدون على فتح الباب على مصراعيه للنصارى و تقتيل المجاهدين.

وهنا بدأ التواطؤ يتواكب بين فرنسا و أسبانيا في (القارة السمراء) و لكن لنا أن نتساءل متى تفتقت أطماع أوروبا في إفريقيا و صحرائها؟ فقد كان عام 1825 (عام قحط لانعدام المحاصيل الزراعية فاضطر المغرب إلى جلب خمسة عشر ألف طن من القمح و تفتحت آنذاك عهد جديد من التبادل مع أوروبا حيث خرجت المملكة من العزلة التي اضطر إلى القبوع فيها فاغتنمت حاجات أوروبا و ارتفاع الأسعار و وفرة المحاصيل عامي 1829 و 1830 فسمح المخزن بتصدير فاضل إنتاجه لتعديل أوضاعه المالية و تحقيق التوازن في ميزانه التجاري و صادف ذلك عهد انبثاق الثورة التقنية بأوروبا و النظام الرأسمالي و طمع الغرب في استغلال موارد إفريقيا لاسيما و قد تفتحت تجارة الأصواف نظرا لمكنة صناعة النسيج و تزايد الطلب في الأسواق الأوروبية للمواد الأولية الإفريقية فارتفعت صادرات المغرب إلى فرنسا عام 1831 إلى ثمانية و سبعين في المائة مما كانت تصدره إفريقيا الشمالية إلى فرنسا عام 1836 من

الأصواف فقط و كانت موارد المغرب من الضخامة و الثراء آنذاك مما أدى إلى تقديرات خيالية أكدتها إحصائيات قام بها رحالون غربيون عام 1859 أوصلوا فيها رؤوس قطعان الماشية إلى (48 مليون) عدا بقية السوائم فانضافت إلى زبناء المغرب التقليديين و هم الأسبان و الأنجليز و الفرنسيون دول جديدة مثل بلجيكا التي أسست بطنجة قنصلية عامة و وقعت مع المغرب عقدا تجاريا (عام 1839) و أرسلت كل من مملكتي السويد و النرويج بسفارة عام 1837 سبقتها معاهدة سلام و صداقة (عام 1836) بين المغرب و الولايات المتحدة الأمريكية و بدأت الصحراء المغربية تجتذب المطامع ففكرت الولايات المتحدة في تأسيس مركز تجاري بجنوب المغرب بالإضافة إلى قاعدة بحرية في إحدى جزيرات المغرب بالمتوسط كما انطلقت كل من أسبانيا و فرنسا في جولات للإطلال على الصحراء و بدأ المغرب يشعر بمدى هذه الأطماع خاصة بعد وفاة المولى محمد بن عبد الرحمان و اعتلاء المولى الحسن الأول على العرش حيث دعا عام 1306 هـ / 1888 (البابا ليون الثالث عشر) للتدخل لدى الأسبان و الفرنسيين لجعل حد لتدخلاتهم في المغرب و مع ذلك أصدرت أسبانيا أمرا ملكيا لإعلان حمايتها في الصحراء (عام 1884) محاولة الضغط على المغرب للتصديق على ما اكتسبته عن طريق القوة مستفجرة السلطان عن مدى و بعد "الحدود الجنوبية للمملكة" فأجاب السلطان يوم رابع رمضان عام 1303 هـ (6 يونيو 1886) مؤكدا مغربية مجموع الصحراء و قد سبقتها رسالة أخرى يوم ثامن عشر ماية إلى ممثلي الدول بطنجة أعقبتها رحلة السلطان إلى الصحراء للتواصل مع شعبه و عمدت أسبانيا إلى التدليس فوضعت خرائط مغلوطة أشرنا إليها في كتابنا حول الصحراء (معلمة الصحراء ص 97) كما نشرت فرنسا بعد ذلك خريطة مزيفة لتضليل الفكر العام و تهيبى الجو لتقليص حدود المغرب و لم تكن هذه الرحلة السلطانية هي الأولى بل كانت شنشنة موصولة حيث سبق للمؤرخ (مارمول) Marmol أن أكد في كتابه "الوصف العام لإفريقيا" (عام 1573م) تنقله شخصيا آنذاك صحبة سلطان المغرب إلى ما يسمى بالساقية الحمراء . و قد قامت (الشركة الجغرافية) في مدريد بعد عام 1885م بجولات للاستيلاء على الأراضي الواقعة بين (رأس بوجدور) و (وادي درعة) و كانت أنجلترا تنربص لأخذ حظها من الغنيمة و إلا عارضتها و قد عارضتها بالفعل حيث صرحت في معاهدة (ثالث مارس 1895) بأن الأراضي المذكورة ملك المغرب و كانت فرنسا تعمل في نفس الوقت لبسط نفوذها على الصحراء الشرقية فانطلقت كوكبة من المهاربة منذ (صيف 1315 هـ / 1897) تخترق (تدكلت) و (كورارة) و (عين صالح) فردت على أعقابها و لكن الفرنسيين احتلوا بسبب التآمر الأوربي (كورارة) (عام 1318 هـ / 1900 م) و كانت فرنسا تطمح إلى استكمال السطو على مجموع الصحراء الشرقية التي بقيت معلقة في معاهدة (لالة مغنية) عام 1845 فأضمت مع المغرب اتفاقية يوم عشري يوليو 1901 في باريس وقعها آنذاك وزير خارجية المغرب عبد الكريم ابن سليمان مع (دلكاسي) Delcasse وزير خارجية فرنسا ثم (بروتوكول) آخر (عام 1320 هـ / 1902) حددت فيه تفاصيل الاحتلال.

وقد لاحظنا في خصوص تركيز النفوذ الأوربي في القارة صدور معاهدات متناقضة بين الدول طبقا للمصالح الظرفية منها معاهدات تأييد للمغرب مثل المعاهدة الإنجليزية المغربية (عام 1273 هـ / 1856) و مثلها معاهدة 1313 هـ / 1895 و لكنها ختمت بمعاهدة بين فرنسا و أسبانيا وقعت في باريس بتاريخ 27 نونبر 1912 / 1330 هـ) تحتفظ فيها كل منهما بنفوذ في الصحراء تعزز بتصريحات إنجليزية (رابع نونبر 1911) مع ألمانيا و بذلك طويت صفحة (حرب أفريقيا) و ما أعقبها من دسائس شارك فيها الغربيون ولا يزالون.

